يفهموا أن المراك سيكون شديداً وقاسياً ، وعليهم أن يكتسبوا المعركة الخارجية ، وهى معركة الدعاية لقضيتهم فى أميركا وفى بقية أنحاء العالم ، عليهم أن يظهروا مساوئ الاستعمار وأضاليله ، وأن يجعلوا الدعاية قائمة فى كل مكان ، وأن تمتاز بالثبات والرسوخ والهدوء والمداومة .

ففى مصر لا يكفى شعور الناس بالعطف على قضيتهم ، بل يجب إبرازها كل يوم فى ثوب جديد على صفحات الجرائد والمجلات ، بل نريد أن نسمع رأيهم وصوتهم ، ونرى مناظر بلادهم ومساجدها وأسواقها ، ونقرأ لأدبائهم وزعمائهم كل يوم ، ونود أن نشاركهم أفراحهم وآلامهم ، ونسمع أغانيهم ، ونرتل شعرهم ، ونظهر على مطبوعاتنا صور معاهدهم ورجالهم ومظاهر الحياة عندهم

إننا فى حاجة إلى أن نتعرف على أهل المغرب ، لأننا فى مصر نحن أهلها أقرب أهل المشرق إليهم .

لقد تلاقت النفوس قبل اليوم ، وارتبطنا بهم بروابط لا تنفصم عراها ، لأن فى مصر أسراً بأكملها تنحدر من تلك الأصول العربية التى جاءت من أرض المغرب

إننا لا نطيق نفوسنا قبل أن ينال المغرب استقلاله ويحصل على حريته

أحمد رمزى

لسان الدين بن الخطيب

الصفحة الأخيرة من حياته

للسيدة الفاضلة منيبة الكيلانى

مد الليل أروقته السوداء فى غرناطة الأندلسية العظيمة ، واتشحت سماؤها المرصعة بالنجوم الزاهرة تلك الليلة بالغمام ، وتضاحك البرق من عربدة الرعد المدوى ، وتهادى الثلج نازلا بأناة وكرم يكسو بالبياض كل ملون... ويتراكم طبقات بعضها فوق بعض ، وخلت الدروب من كل صوت ونأمة ...

وسرت عدوى السكون العميق إلى قصر ابن الخطيب الباذخ فما كان يسمع فيه شىء مما اعتاد أن يزخر به القصر العتيد من صوت القيان أو نداء المزاهر ، وما كان يرى فى أكنافه الرحيبة من وراء الكُوى ، إلا ضوء واحد يمرق من نافذة فى غرفة رب القصر ، وإن كان قد انتصف الليل من وقت طويل .

وهدر الرعد من جديد ، ففتحت على ابن الخطيب بابه فتاة فى مقتبل العمر وانزاحت من اليساب رفيقة إلى حيث يجلس الكهل ، وتقدمت إليه تحييه وتقول له فى دلّ :

— أوَ لا تزال يا عماه مسهد الجفن تكتب والناس رقود ؟

فيرفع ابن الخطيب رأسه ويمد بصره إلى ابنة أخيه ، وقد أضنى عينيه ضوء الشموع وصفحة الكتاب ويقول لها :

— إن الذى ميزنى يا بنتاه عن الناس الذين تسمين ، إنما هو هذا السهاد وهذا الاعتكاف ، وما بلغ امرؤ يا بنتاه فى غطيطه ما يبلغ الساهر فى سبيل العلم ، ولو درى أولئك السادرون فى غواياتهم أية لذة أطعم ، وأية سعادة أذوق ، لاستبدلوا بالفراش المحار ، ولأوغلوا فيما أنا فى سبيله ... ألا يستوى جاهل وعالم ، وساع إلى الراحة ومتشبث بأذيال العلم ... وهذه غرناطة تعلم أن شيخها يسهر والناس من حوله نيام ، فيصيب من سهره ما يميزه عن النائمين والغافلين ...

ثم يعود الشيخ إلى نفسه فيستدرك ويقول :

— وأنت يا ابنتى ما بالك بارحت الخدر وأنت إلى الرقاد أحوج من شيخ غرناطة ؟ ... أهو حلم لذيذ أرسلك إلى عمك تقاسمينه خبره ؟ فتجيبه : لقد أيقظتنى جلجلة الرعد ، فما استطعت من بعد اليقظة إغفاءة !

وتجلس الفتاة ، فيسألها عمها أن تكتب له الصحائف الباقية من كتابه « الأصول لحفظ الصحة من الفضول » . فتكتبها وهو يمليها عليها ... وتنتهى فتطلق الفتاة عليه بأنه عمل متعب قد يؤذى صحته الغالية . فيقول لها : « يا بنتاه ، العجب حتى مع تأليفى لهذا الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى الطب ، فإنى لا أقدر على مداواة داء الأرق الذى بى » . فتقول مجيبة : « ولكنه يا عماه أرق مفيد على كل حال ، وهل تنكر فضل الأرق الذى خرجك فى الفلسفة والطب والتفسير والحديث والفقه والتاريخ وعلوم العربية من شعر بارع ونثر بديع ؟

فيبتسم الشيخ ابتسامة استكبار وتيه ... ولم تكن الفتاة مجاملة ولا مراوغة فى هذا الذى قالت ، فقد عرفته الليالى طالب علم ورجل جد ، وعرفه أساتيذ غرناطة ذكى الفؤاد ، واعى البصيرة ، سديد التفكير .

ويفرق لسان الدين فى فكرة طارئة ، وتسهم مقلتاه الزرقاوان فى غير وعى ... فتقول له ابنة أخيه : « ولقد فرغت يا عم من مطالعة ما زودتنى به من كتاباتك ، فراقنى منك شعر الغزل الجميل فى هذه الموشحات التى رصعتها بما يعيا به الصاغة الماهرون ، وأعجبنى كلام الأتقياء ، ولكننى وجدت فى رسائلك التى تتندر بها على الحال الاجتماعية سجعاً غريباً ، وإطالة لا عهد لك بمثلها ، فقد أطلت فيما كتبت وأطنبت فى التصوير إطناباً خُيل إلىّ معه أنك قد ملأت من الفكرة الصغيرة صفحات ، فهل ستنسيك السياسة ذياك الأسلوب والنغمة التى فتنت بها غرناطة وأرقصت بعذاراها زمناً ؟

وهنا يتبسم لسان الدين مرة أخرى ، ويهيب بفتاته أن تعود إلى مخدعها ، فقد انقطع الرعد ، ولم يبق من الليل إلا رمق ، وإنه ليرى أن السهاد قد يضر جمالها الضحيان ... وإذ تذهب يقيم لسان الدين يفكر ، ويعمل الرأى فى هذه الأحداث التى توالت دراكا ، ويبحث هذه القلاقل السياسية التى أوشكت أن تودى بأدبه الغض وخياله الرائع ... لقد صدقت بنت أخيه ، فإن السياسة التى فتنته قد انبرت تخرس تلك النغمة السائغة الشهية التى أرقصت عذارى غرناطة زمناً ، وهذه فتنة لا يدرى هو أيضاً كيف استحوذت عليه ، فتبدل بالعلم والأدب السياسة ومشتقاتها ، وأقام برهة يتفكر فى عواقب الأمور وما قد تجره عليه من وبال ، ووقر فى نفسه أن ينتقل إلى الهامش إن هو استطاع إلى ذلك سبيلا

ثم يعود فيمد بصره فى الماضى ، حيث كان السلطان أبو الحجاج يوسف يعطف عليه ، ويقرب مجلسه ، ويستأنس برأيه ، وقد اختصه بكتابته ، وأجرى عليه صنوف الرفد والعطاء ، فأنتج ما شاء له الإنتاج ، وأبدع ما وسمه الإبداع .

ثم يموت أبو الحجاج يوسف ، فيخلفه ابنه محمد بن أبى الحجاج وهو الفتى الذى خدمه ابن الخطيب أصدق خدمة ووفاه أقصى حقوق الولاء ، فجزاه ممروفاً بمعروف وخيراً بخير ، وأبقاه فى مكانه وضاعف له الرعاية ، ولكن الفتنة الراقدة تململت ، وحبب الناس لأخى الملك الجديد أن يناوئ أخاه ويزعج نفسه ، فهو لا يدرى كيف يأخذ ولا ما ذا يصنع . وقد قال له هذا الأمير المحق أن يتبين له وجهاً من الرأى ودرباً من الرشاد ينفذ منهما إلى صرع الباطل والحسد الأثيم ، ولابد لابن الخطيب من نصيحة يسديها لمولاه ضحى الغد ، وهو الذى عرف عنده أصالة الرأى وسداد الفكر ، فما ذا تجدى عليه هواجسه من السياسة ومشتقاتها ومغبتها ، وهى مفروضة عليه يحتمها الولاء والوفاء لمن والاه ووفاه حقوقه .

هنا ينبلج الصبح ويقطع على لسان الدين التأمل رسول الملك فقد جاءه يخبره بأن الملك يريد البراح بعد أن أخفقت كل محاولة فى تحسين الحال ، فيخف إليه ابن الخطيب تاركا المهاة فى خدرها والكتب فى أدراجها وبيارحان الملكة ... وقد تقطع قلب لسان الدين لكلمة وداع لابنة أخيه الساغبة وكلمة وصية بكتبه فما أفلح

ولم يكن الهروب لينجى ابن الخطيب ، فقد وقع فى قبضة السلطان الجديد ، وأراد التنكيل به لولا أن سلطان المغرب الذى شغف بأدبه وعلمه يحميه من البطش ، ويمهد له من مدينة فاس أرضاً صالحة خصيبة تواتى قريحته ، فيرسل زفرته الخالدة :

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلماً فى الكرى أو خلسة المختلس

وتلفقها ابنة أخيه ، وتقرؤها على أترابها ، وتتيه بها إعجاباً وفرحاً .. فلقد أرقص لسان الدين عذارى غرناطة من جديد .

هنا يتأزم الوضع فى غرناطة تأزماً جديداً ضد لسان الدين ، ويعمل العلماء والفقهاء من أعدائه ضده ويرسلون فيه هُجر القول ويرمونه بكل نقيصة ، ويروجون فيه أنه كافر ، وهم إذ يفعلون ذلك ينتقمون لمنازلهم التى احتلها هو فى قلب السلطان الماضى ، ويناوئون للسلطان الحاضر ، وكلا الأمرين يؤتى بالثمرة المحرّمة ، التى يريدونها .

وأمر ما لقى لسان الدين من هذه البلوى أن يقود هذه الفئة المعادية والفتنة العمياء تلميذه ابن زُمرك وهو الذى نشأ وترعرع على يديه .. فقد وكل هذا المخلوق المنحوس قلمه فى شرح وتبسيط كفر لسان الدين الذى علم الله أنه منه براء .